الأهرام ملحق الجمعة
23 مايو , 2008 عدد رقم 44363

لم ينضج السمك بعد٢

بقلم: إحسان كمال

هذه المرة جاءه الرد: كل فرد متروك لضميره يحاسبه علي أعماله دون أي تدخل من أحد..! فعلا، رغم كرم الجميع وبذلهم وبشاشتهم، لم يكن أحد منهم ليرحب بأي تدخل في شئونه، وهو بالتالي لا يتدخل في شئون غيره، وكان لهذا الطبع حسناته الكبري، بالنسبة إليه علي الأقل، لم يجبره أحد علي القيام بأي عمل، بل حتي لم يسأله شخص.. لماذا لا يعمل، يوما قال لأحد جيرانه بعد أن صعد السلم قفزا:

ــ صحتي ضعيفة جدا، لا تساعدني علي العمل!

فرد عليه دون أن تبدو في عينيه أية نظرة من تلك التي كان يتوقعها:

ــ هذا شأنك وحدك..!

حاول أن يأخذ عنهم هذه العادة لكنه لم يفلح تماما،، يوما كان في نزهة بالريف.. فرأي ما جعله يحدث نفسه(لك الله يا هذا البلد العجيب).. كل ما يقع فوق أرضك مدهش غريب، هذا الرجل يري جاره، الذي إلي اليمين قد فتح قناة بين أرضه والترعة لتروي زراعته وهو مستريح، والذي إلي اليسار يدير شادوفا، ومع ذلك يستعمل هو هذه الطريقة البدائية.. بل العقيمة؟ فليت الدلو كان سليما، الماء كله يتسرب من الثقب الصغير بقاعه قبل أن يصل أرضه، ومع ذلك يعيد الكرة مرة ثانية وثالثة وعاشرة في صبر وجلد عجيبين. دون أن تنال زراعته إلا النزر اليسير، تقدم منه صاحبنا ناصحا:

ــ حتي الصباح ستظل تعمل دون أن تسقي زرعك، لماذا لا تقلد زميلك الأول.. أو حتي الثاني؟ العرق يتصبب منه لكن أرضه تروي علي أي حال.

لم يرد عليه الرجل فتذكر الطبع الغريب، مضي وتركه يسير والدلو في يده.. يذرف الدموع أسي علي الجهد الضائع. في المنزل وجد زوجته غاضبة.

ــ لماذا تحشر نفسك في شيء لا يخصك... ولا تفهمه؟ هذا الاعتراض نعتبره جريمة..!

أدهشه علم زوجته بما حدث، علي أنه وعدها ألا يكرر ذلك، لكنه نسي الوعد.. بل نسي نفسه في نزهة أخري، ذلك الفلاح لا شك مجنون.. هل يمكن أن يفعل أي عاقل ذلك؟، ما

أعظم خسارته، إنه حتي لو حصد محصوله وهو بعد فريك أخضر كالفلاح الثاني.. لاستطاع بيعه، وإن جاءت أرباحه أقل من الفلاح الأول.. الذي يجني قمحه بعد تمام نضجه، أقبل عليه بلا ترو:

ــ ما الذي تنتظر أن تكسبه من هذا العشب الصغير؟ ضيعت هباء مجهود الشهور الماضية كله..! كان في وسعك أن تنتظر بضعة أسابيع أخري.

هذه المرة أيضا لم يرد عليه الفلاح المسئول، وظل يعمل منجله بلا رحمة ولا أسف في العشب الأخضر الضئيل، أسرع إلي منزله وهو يدعو الله ألا تكون زوجته قد علمت بما كان، لكن منظر غضبها وبكائها أكدا له أنها علمت، أفهمته أن هذه آخر مرة.. وأنه اذا كررها مرة ثالثة فهو لا شك مطرود من البلد، استطردت:

ــ كل شيء مقدر ومرسوم، يسير كالساعة.. أو كنت عاقب الشمس والقمر.. هل تستطيع بنصيحتك أن تؤخر هذه أو ذاك ولو لثوان؟..

ظل في المنزل أياما لا يخرج خوفا من الغلط، حتي أصابه الملل، عاد للخروج، وقد قرر أن يلجم جماح فضوله، لكنه كان معذورا في المرة الثالثة، أي إنسان لا يمكن أن يري هذا ويسكت، زوجته نفسها لو رأته لتقدمت ناصحة، لقد استطاع أن يعود نفسه علي كثير من التصرفات الشاذة.. لكن شذوذ اليوم فاق المعقول، كيف يتصور كل هؤلاء الناس أن الصخرة ستتحرك بهذه الطريقة.. وكل منهم يشد علي هواه؟، أكثر من عشرين رجلا.. يجذبونها بعشرين حبلا.. كل في اتجاه..! كل يضيع مجهودات زملائه، فما تكاد تتحرك مع أحدهم سنتيمترات إلي الشرق.. حتي يجذبها آخر إلي الجنوب، ثم يعيدها ثالث إلي مكانها الأول يجذبه إياها إلي الغرب..! لم يدهشه أبدا أنهم خلال ساعة كاملة لم يستطيعوا تحريكها قيد أنملة، الذي يدهش حقا أنهم يأملون غير ذلك، أليس فيهم واحد فقط يدرك عقم المحاولة؟ أخيرا لم يستطع صبرا فصاح فيهم:

بهذا الشكل لن تتزحزح الصخرة من مكانها أبدا، لماذا لا تتحدون جميعا وتجذبونها ناحية واحدة؟ لن تستعصي عليكم حينذاك فتذهبون بها إلي أي مكان تريدون..

لو كانت الصخرة العنيدة سمعت أو ردت لكانوا هم سمعوا أو ردوا، ظلوا مستمرين شدا وجذبا، بعد فوات الوقت أدرك الهوة التي تردي فيها، أسرع إلي منزله عدوا لكن زوجته أبت أن تفتح له:

ــ لم يعد لك منزل ولا زوجة ولا أولاد، بل لم يعد لك حياة هنا..! ماذا؟ أهي مؤامرة

اشترك فيها ضده جميع البائعين في المدينة؟ يبيعون لكل الناس فلماذا يرفضون طلبه هو؟ بل هم لا يرفضون فقط.. إنهم لا يردون عليه أو يعيرونه أي التفات.. كما لو كان شبحا لا يرونه أو حشرة لا يحسون بها، أو ربما أصبح بين دقيقة أخري رجلا خفيا.. هل هذا معقول؟ يكاد يهلك جوعا والمدينة ملأي بما لذ وطاب.. بالمجان تقريبا؟ وتذكر صديقه الأول بائع الفول.. ولكن الخسيس.. يتنكر هو الآخر للصداقة، حث قدميه.. ورغم ذلك وجد أنه حتي البائعين في أطراف المدينة قد وصلتهم أخبار المقاطعة، لم يأخذ منهم سوي.. الإعراض التام..!

عجبا.. هل يحلم؟ فرك عينيه لكن المنظر ظل كما هو، هذه الشجرة الباسقة في الزاوية علي حافة الترعة.. تشبه تماما تلك التي ألقي بنفسه من تحتها ذات يوم منذ أعوام، وخطر له خاطر لا يدري أكان مصدره رأسه أم أمعاءه التي تتلوي.. فارغة، لماذا لا يكرر ما حدث من قبل.. ربما حل الاشكال علي أي وجه، وفعلها.. تري من الذي انتشله؟ لا أحد بجواره في المسجد القديم سوي الشيخ العجوز، بيد أنه قطعا أضعف من أن يستطيع ذلك، ولكن هذه الحقيبة في يده..(إنها حقيبتي.. حقيبتي التي كانت تحوي أموالي وأوراقي.. والتي ابتلعها اليم من زمن طويل، تري هل سيعترف بسهولة أنها تخصني.. أو يدعي أنها ملكه الشخصي؟ باستطاعتي رغم السنوات العديدة أن أذكر له بعض ما بها كدليل) لكن الشيخ يقدمها إليه.. من تلقاء نفسه:

ــ حاجاتك.. ما كان أغناك أن تسأل كل تلك الأسئلة، لكنك مازلت متطبعا بطبائع الدنيا، متعودا لعاداتها، وفي نفسك أطماعها وشهواتها، وإذن فلا يوجد لك علاج..!

أي شيطان أخبره هو الآخر بما كان؟، غمغم:
ــ سألت برغم تصرفاتهم كانت تدعو للعجب، مع ذلك نصائحي كانت في صالحهم.

ــ بل لم تكن لتغير من الأمر شيئا، فالأرزاق في يد الله وحده.. سبحانه وتعالي هو الرزاق الكريم، يرزق من يشاء بغير حساب ويمنع عمن يشاء، كذلك الأعمار محدودة بمواقيتها.. ولكل أجل كتاب، ومن جاء أجله ــ مهما كانت سنه ــ لا يتقدم دقيقة ولا يتأخر.

ضرب بيده علي جبهته: يا إلهي!.. نعم.. نعم.. فهمت.. ولكن.. الصخرة الكبيرة.. ما هي؟

هي الدنيا..!، الكل يطمع فيها لنفسه.. مثلك، متعلق بها وطباعها تجري في دمك، لم تكن زاهدا فيها أبدا.. وإنما كانت أزمة عابرة، ونصيحتي كانت أن تتخفف من بعض لا

من كل ما تملك، والناس أولي من البحر.

رغم السنين لم يتغير في الشوارع شيء.. ومنزله هو هو. ما كادت زوجته تراه حتي شهقت بدهشة، قطعا كانت قد فقدت الأمل في عودته.. أردفت:

ــ لأني قلت لك لا تتأخر.. تعود بعد ساعة واحدة كيف تظن بالله عليك أني في هذه الفترة القصيرة.. استطعت طهي السمك؟.